

بناه في عهد الامير فخر المرحوم

منذ ثلاثمائة سنة

١٥٩٥ - ١٦٣٥

بقلم عيسى اسكندر الماروف  
مؤلف تاريخ الأثر الشرقية

٢

### عودة المعني الى الوطن

فناوض فخر الدين الفرندوق ، واخبره بشوق والدته اليه والى اهل بيته ، واستأذنه بالسفر . فلما رأى الحاجه اذن له ، بعد اخذ ورد كثير ، فسافر الى البلاد ، وتزل في عكا في ٩ شوال من سنة ١٦١٧ ، بعد غياب نحو خمس سنوات عاد فيها مرة سراً ورجع الى بلاد غربته . فلما علم الناس بقدمه ساروا مواكب مواكب بهرجان عظيم لاستقباله . فوصل ديو القمر . وبقيت الوفود تأتي اليه شهرداً من كل فيج وصقع حتى اطراف البلاد ، حاملين اليه الهدايا متبشرين به خيراً ، وكان بين الحشد كثير من اتخذوا الرياء ديدنهم ، وبينهم آل سيفا الذين رفضوا هديتهم وصرح لهم باستيائه منهم لحرق داره بيبابه . فاضمروا له الشر .

وعاد المعني لاستالة الدولة العثمانية في الاستانة بسفراء مخلصين ، فوثقت باخلاصه وغم الوشايات الكثيرة به . ولكنه اخذ يقتص من اعدائه وبيضايقهم ، وبينهم آل سيفا الذين هدم بعض حصونهم وبيوتهم في طرابلس وعكار . وهكذا امتدت سلطته من انطاكية الى الكرمل . وقال لقب «سلطان البرين» مثل جده لايه فخر الدين الاول . وشرع في التصمين والتعمير وعقد الماهدات وترويج التجارة ، فآثرى من مشاربه الاقتصادية ، وعمم العمران ببلاده حتى

صار دخل خزينته السنوي نحو تسعمائة الف ليرة ؛ كان يرسل منها الى الحرثة السلطانية ثلاثمائة واربعين الف ليرة . وتمكن بدرته ودرايته وما بذله من المتاية بالتجنيد والتبئة على الطرق الفنية في ايامه أن يجمع في اثناء عشرة ايام عشرة آلاف جندي مدرّب ار اكثر ، فوق ما كان عنده من السكان المرابطين في الثغور ، وهم اكثر من الف رجل . وكثّر عنده القواد والاطباء والمهندسون والبنائون والصناع وغيرهم من التوسكانين والمسيحيين الوطنيين وسوامم كان يواقبهم بنفسه .

فعدل في احكامه وأمن الطرق ونشر العمران . ولكنه ارهق البلاد بالضرائب . فكثّر موارد الحكومة المتناية واسترضى رجالها بدياه وتقادمه الكثيرة حتى تضايقت الرعية منه . ولضبط اعماله اتخذ سجلّين : احدهما يدون فيه اسماء سكان ولاياته محصياً اعمارهم وصفاتهم ومطرفهم وشؤونهم . وثانيها يدون فيه عدد الاشجار المثمرة وكروم العنب وشجر التوت ، متقاضياً عن الناس الخرج وعن الاشجار الخراج . وكان ينتهز فرصة فراغه من اعماله السياسية والادارية فيرصد ساعات خاصة لمراجعة هذه القيود ، وضبط الحسابات ، والتدقيق في الدخل والخرج ، ناظراً بدقة الى كل عمل يعين تقادة وفكر مدقّق ، قاتلاً نهاره وحيّاً ليله في النجاش رعيته وحفظ مركزه وتكثير ثروته .

### معارفه وجهه للعمران

ولم يكن هذا الحالم اليقظ النابغة الداهية مقتصرأ على هذا فقط ، بل كان يحب العلوم واقتباس المعارف ، مقرباً اليه الكتاب والشعراء ، مجزلاً لهم الصلات ، مولماً بعلم الكلام ( اللاهوت ) ومحباً للباحث الكيماوية والتصوير ، ومهتماً بالادوية المفردة ، حتى استخدم لذلك مصوراً افرنسياً رسم له نحو الف وخمسمائة نوع من النباتات بصفاتها والوانها وخواصها . وكثيراً ما كان يقترح على العلماء والمهندسين والشعراء مواضيع يجيدون بها في تليته ، من ذلك انه اقترح على صديقه المطران برجس عميره ، اسقف اهدن الماروني الذي صار بطريركاً ، ان يولّف له كتاباً في هندسة الابنية ؛ وجمع بعضهم مدائمه في اكثر من مائة

صفحة ذكر المحيي في خلاصة الاثر انه وآما واخذ منها . والف النجم التري رسالة في المني والحاج كيران في بطلبك وقتله اياه . ولم تقف على شيء من هذه الكتب مع كثرة تنقيتها عنها . وثلثا كتاب مجموع الاحزان في مرآئي الامير قرقاس المني والد فخر الدين . اما كتاب الشيخ احمد الخالدي الصفدي في الامير وحوادثه ووصف رحلته الى اوربة وما شاهده فيها فقد ظهرت باكثر من نسخة منه نقلت . . . . .

وعرب فخر الدين رواية ماتيلده عن الايطالية . وقال الاب اوجين في الصفحة ٢٩٣ من كتابه « الارض المقدسة » الذي ذكر فيه زيارته للمني : ان فخر الدين اوقفه على كتاب الفه في تاريخ اسرته المعنية . فنقل منه فقرة . ولم تعلم شيئاً عن هذين الكتابين . لان اوراق المني وموجوداته صادرتها الحكومة على اثر القبض عليه ، ونقلتها الى الاستانة ، وصادرت جميع مريدبه فهرب الخوازة الى توسكانة وضبطت اوراقهم .

ولتسهيله سبل التجارة للافرنج زاره في ايام حكمه المناربة واليونان واليهود فضلاً عن الافرنج فكثروا الثغور البحرية ، وامتدت فيها تجاراتهم متصلة بالمدن الداخلية والساحلية الى العراق والمنند وآسية الصغرى وبلاد العرب ، ومصر والمغرب الى جزر البحر المتوسط والارخبيل . فربطت الشرق والغرب بملاقات مهمة حملت كثيراً من سكان بلادنا على المهاجرة الى توسكانة وما اليها ، كما جلبت كثيراً من سكان تلك الجهات الى بلادنا فتديروها وبقيت سلالهم فيها . ووثق عرى المماثلة مع البنوك (المصارف) . واقتنى مركبين حربيين استعملهما للتجارة ايضاً ، كان فيها خمسون بندقياً من بيوت ، ورفع تمدي القرصان عن المراكب .

اما الزراعة فانه اعتنى بها ، وبترية المواشي ، وتوفير الحصب بالذرائع الفنية . وكان اول من شرب الدخان (التون) بالليون ، وادخل زراعة التبغ الى بلادنا ، وكذلك الرز ، والقطن ، ولا يزال اسم « المقطنة » و« مرج القطن » في دير القصر دليلاً على حلجه وزراعته . وعزز تربية دود الحرير وحل فيالجه (شرانقه) ؛ وزراعة القنب ، واتخاذ الحيوط والجمال منها . وتجنيف المستنقعات ، وتشيد

البحر، وجوز المياه، وغرس الأشجار، ولاسيما في غاب الصنوبر في بيروت وحدائقها الآتية بيانا.

وإدار نظره إلى الصناعة فأكثر من معامل الصابون، ومهاصر الزيت والصبغ، ومشاعل النسيج، ودواليب حل الحرير، فضلاً عن الصناعات الوطنية كالنجارة والحدادة والصباغة والبناء. فكلف بتشييد الابنية على طراز شرقي أو توسكاني وروماني. ومن آثاره العظيمة خان الافرنج في صيدا الذي فيه مائة غرفة<sup>(١)</sup> وكذلك ابنية دير القمر كالحرج وغيره، وابنية صيدا، وكلها لا تزال عامرة. أما بيروت فقد نُقض آخر قصوره فيها في السنة الماضية كما كتبت عن ذلك في الصحف، أسفاً لهم آخر قصر للمعني تحته اصطبل الخيول وهو بين تزل (لوكندة) ساقوى والفتندق المريني إلى غربي قصر الحكومة، في آخر ساحة البرج لجهة البحر، حيث يبني محل قصر المعني الآن عبود بك عبد الزاب الكاري، نائب طرابلس، محلات تجارية، ومن العجيب ان يكون المعني قد هدم قصور آل سيفا في عكار وجلب بمض حجارتها إلى دير القمر. والآن يأتي رجل من عكار فيهدم آخر ابنيته في بيروت...

### ابنية وهدائقه في مدينة بيروت

كل من يمر اليوم «ساحة البرج» التي سميت أخيراً «ساحة الشهداء» يمكنه ان يتصور ان كل هذه الفسحة مع ما حولها من الابنية كانت حديقة للحيوانات وارجاباً وقصوراً واصطبلات للخيول ومرابض للأسود وقراءد للامائل، وذلك عندما اتخذ المعني بيروت قاعدة لحكمه سنة ١٦٣٢. فكان هو يمتد ونحن نخرّب آثاره بعد ثلاثائة سنة.

ولكي اصوّر لكم ابنيته وحدائقه اعرب لكم كلام السائح الانكليزي

(١) في هذا الحان حفظ دريكالوم قنصل فرنسة في صيدا، الصادر سنة ١٨٦٠، فانتم من المذابح، لانه كان مسكناً للتناصل. وذلك القم هو الآن مستشفى للحكومة الفرنسية. اما القم الثاني من الحان فهو دير للآباء الفرنسيسكان، وكنيتهم فيه تسمى «تراًنتا» أي الارض المقدسة والقم الثالث منه هو الآن ميم ومدرسة راهبات مار يوسف. فتأمل كبير هذا الحان الذي وصفه الرحالة موندول الانكليزي كما سترى.

الرحالة هنري موندول ، الذي دخل بيروت في ١٨ آذار سنة ١٦٩٦ ، اي بعد ستين سنة من قتل المغني ، وهو الذي وصف ذلك شاهداً عياناً في كتابه « من حلب الى اورشليم » ، من الصفحة ١١٤ ، فصاعداً قال :

« ستيت بيروت باسم بعل بيريت ، ولقبت جوريا فيلكس اي السيدة . . . وكان قصر الامير فخر الدين فيها ، وهو رابع امير من امرته ، والطامة ترعم ان اصله من الصليبيين الذين بقوا وتشتتوا في البلاد . . . فزودت ذلك القصر في الشمال الشرقي من المدينة . وفي مدخله صوريح رخامي من اجل ما رأيت في المملكة المثمانية بقراته (نوفرته) وفي القصر غرف للمعالم كثيرة اصبحت الآن خراباً وبعضها لم يتم بناؤه . وهناك اضطرابات للخيل ، ومرابض للسباع والوحوش ، مما لم أر مثله الا في قصور الملوك .

« واجل ما في القصر حديقة البرتقال . فهي مقسومة الى ١٦ مربعاً كل اربعة منها في جهة ، وبينها ماش . مرحوة بالحجارة وفيها اقنية لجر المياه المترققة فيها للسقا . والجدران مظلة باشجار الليون النضرة . وكان فيها بتاني انكليزي يرتبها على الترتيب الذي شاهده الامير في سفرته الى توسكانة وما حولها وعمل مثله بما لم يكن في الشرق . ولكن هذه الحديقة امت الآن زرية للمواشي كالنعم والفري .

« وفي شرقي هذا البستان مشيان مرتفعان احدهما فوق الآخر يصعد الى كل منهما باثنتي عشرة درجة توصل الى مصيف يهيج في الشمال ، كان الامير فخر الدين يجلس فيه مع بطانته في ساعات امله على نبط ما رأى عند امراء توسكانة ايضاً .

(١) من الرحالة H. Mandrell الانكليزي الذي رحل الى القدس في عيد الفصح من حلب . ورحلته في مجوعة « رحلات قدينة في المشرق » *Early Travels in Palestine* طبعت في لندن سنة ١٨٤٨ في ٥١٧ صفحة بنظم اشمن : ورحلة موندول فيها من الصفحة ١١٢-١١٣ غير مصورة . ثم وجدتها مطبوعة على حدة مصورة وهي من ٢٦ شباط سنة ١٦٩٦ الى شباط سنة ١٦٩٧ ، وتقت فيها هذه القطعة مرآة باختصار قليل ، وقد وصف الرحالة بعض ثمار بيروت وما يادورها . والكتابان في خزانة الجامعة الامبركية في بيروت ، نلت بعض الرسوم المتلفة بتاريخ المغني عن احداهما .

«ورأيت في حديقة اخرى قواعد للتماثيل التي كان الامير ينوي نصبها عليها كما في متاحف بلاد الفرنجة وحدائقها العامة وهي ثما بأبأها المسلمون.  
«وفي زاوية هذه الحديقة برج علوه ستون قدماً وكثافة جدرانه اثنتا عشرة قدماً وهو للمراقبة».

انتهى قول السائح الانكليزي.

اقول : واراد بهذا البرج برج الكشاف الذي كان موقه في زاوية ساحة البرج الشرقية الجنوبية على يسار الداخل في طريق النهر ، حيث هناك الآن خان البرج ، وهو جزء منه بقي ، ووده وجداره فقط . وكان يشرف على طريق طرابلس وطريق الشام وصيدا والبحر فلذلك سمي الكشاف . وكثير من الشيوخ شاهدوه في منتصف القرن الماضي وما بدمه بقليل قبل ان هدم وشيدت مكانه الابنية الحاضرة في شرق ساحة البرج الجنوبي .

وبما ذكره موندول عن بيروت مما له علاقة بالمعنى قوله : « في ١٩ آذار ذهبنا مسافة ثلث ساعة الى سهل عظيم يمتد من البحر الى الجبل ، وفي بدئه غاب صنوبر زرعه فخر الدين<sup>١</sup> ونظن انه نصف ميل . » (هـ)

وفي الصفحة ٤٢٠ قال : « وعلى هذا النهر (يريد نهر الدامور) التقينا بعدد من التجار الفرنسيين من صيدا لهم شغل هناك في المدينة . فنصبنا خيامنا خارجاً عنها . ولكن تجار فرنسة ادخلونا الى محلهم في ائخان الكبير<sup>٢</sup> المجاور للبحر حيث القنصل وكل الشعب يسكنون معاً .

« وهناك المينا الذي طمره فخر الدين لمنع الاتراك من الدخول اليه باساطيلهم<sup>٣</sup> فالمرقاً مسدود ، وكل المراكب المشحونة او الشاحنة تتمتع بملجأ

(١) كثر عند القدماء نذر الاشجار لآلهتهم . فلعل شجر الصنوبر خصص بالاله (بيريت) الذي كان ميكله في بيروت وسيت المدينة به ، فيكون ماصراً لها منذ القديم . او انه غرس لمنع الرمال التي تنسفها الرياح على المدينة فتطمر بعض ابنتها ، فيكون منذ مدت الرمال من جهة الاوزاعي البحر ، لان بيروت كانت قديماً جزيرة كما ذكر بعض الجيولوجيين .

(٢) يريد به خان الافرنج الذي سبق ذكره في هذه المقالة .

(٣) انكر علامتنا واستاذنا الاب لامس اليسوعي في كتابه « ترويج الابصار » القول

صخور على بعد ميل من الشاطئ في شمالي المدينة . وهناك اطلال طمرها الاتراك . وفي جنوبي المدينة قلعة على رابية يقال انها من بناء الملك لويس التاسع الفرنسي الملقب بالقدس . وعلى مقربة منها قصر لفخر الدين غير كامل البناء يستخدمه الحاكم لبعض اعماله .

### الاصبر حين ابه الاصبر فخر الدين

ولد في دير القصر في ١٤ ذي الحجة سنة ١٦٢٠ م ، ووالدته ابنة الامير علي سيف ، شقيق يوسف باشا حاكم طرابلس . فاسره الوزير خليل باشا ، الصدر الاعظم ، من قلعة المرقب صغيراً . ونقل الى حلب ، ثم الى الاستانة في خدمة الصدر المذكور . فدرس علومه في مكتب سراي غلطة . ثم نقل الى السراي الكبيرة ، عند السلطان . ثم الى « خاص اوطه » وترقى في الرتب السلطانية الداخلية في السراي العثمانية حتى صار كاتبا الخزانة السلطانية ، وابي قبول رتبة الوزارة التي عرضت عليه . ثم خرج كمادتهم برتبة الخواجكانية ، وهي كتابة الدولة على القواعد العثمانية ، وتولى مناصب عديدة بقتضى الرتبة المذكورة . فازسله السلطان محمد خان ابن السلطان ابراهيم خان ايلجياً (صيفياً) الى سلطان الهند ، فمرّ بصيدا حيث استقبله نسيه الامير احمد المني ، آخر حكامهم ، والامراء الشهابيون ، حكام وادي التيم ، وبعض الاعيان واجتمعوا به في حاصبيا . وعرضوا عليه حكم البلاد فلم يقبل .

فلستأنف سفره الى الهند وباد الى القطنطينية مكرماً ومتماً ما انتدب اليه . ولما توفى نسيه الامير احمد حاكم لبنان بلا ذكور ، وانتقلت الامارة الى الشهابيين اصهاره ، اعترض الامير حسين على تعيين الابر بشر بن الامير حسين الشهابي امير راشيا لانه ابن اخت المني احمد باشا آخر حكامهم في لبنان . وقرر ان حق الوراثة هو للابر حيدر بن الامير موسى وهو سبط (ابن بنت) الامير احمد المذكور . فسلت الحكومة برأيه ، فوضعت الامير بشر وكيلاً للولاية

الى ان يبلغ الامير حيدر القاصر اشدّه فيجلس على تخت الولاية<sup>١١</sup> : وعندي رسالة للامامة السعدي هذا الشأن .

وكان الامير حسين المضي عالماً شاعراً مؤلفاً ، متضلماً من السياسة الثمانيه مطلقاً على انظمتها يغلب عليه التقى والصلاح . وكان صديقاً لمصطفى نعيما الحلبي<sup>١٢</sup> صاحب التاريخ التركي المشهور ، وعنه اخذ ما كتبه عن لبنان وحكامه وخاصة عن الاسراء المميين . وذكر له نعيما بعض مؤلفات منها « تراجم علماء عصره » لم اقف عليها ، ولها في الاستانة . لكنني وقفتُ منها على « مستغب التميز في المحاضرات والادبيات » واستنسخته<sup>١٣</sup> . اما المطول فلم اقف عليه وهو في احدي خزائن الاستانة وفي خزنة شيخ الاسلام في المدينة المنورة .

وتوفي الامير حسين هذا في الاستانة سنة ١٦٩٧ . وكان جميل الصورة نجيباً . ومن شعره قوله :

رأيت النمل يتبع وهو قصدُ      ورمي في المهالك اذ يزيدُ  
كسل الماء يُروري منه قدرُ      ويملك منه بالفرق المزيدُ

١١ ذكر هذا الامير حيدر احد الشهابي المؤرخ في الجزء الثاني من مخطوطة تاريخه ، في خزائني كتبت سنة ١٨٤٤ ، وهي وفق نسخة الامير حيدر التي كتب عليها بخطه في الخزانة الشرقية للآباء اليسوعيين نقلت عنها بالحرف بخط الحوري بطرس صغير ، مرشد الامير حيدر اسماعيل الامي ، وذلك في الصفحة ٣

١٢ هذا المؤرخ من أسرة كوچك علي آغا . اصلهم من ديار بكر ، جلب السلطان الثماني جدم علي آغا الصغير (كوچك) الى حلب لتكثير الاعيان فيها ولا تزال بيتهم هناك . وتاريخ نعيما طبع ثلاث مرات باللغة التركية فكل من الطبعتين : الاوليين في سبعة مجلدات والطبعة الثالثة في ستة مجلدات ، وحوادثه تنهي في سنة ١٠٧٠ هـ (١٦٩٩ م) وفيه فوائد مهمة عن الدولة وولاياها وحكامها .

١٣ كتبت في وصف هذا المخطوط مقالة في مجلة المشرق (٢٧ : ٨١١) فراجعها وطالع نسخة من هذا الكتاب فيها ، وترجمة الامير حسين هذا .

( له صلة )